

الفصل الثالث

تيار الوعي الدافق

قلت منذ بضع دقائق قليلة إن أكثر العوامل والعناصر تمييزا — فيما يتعلق بالعقل وطرائق أدائه — هو كل ما يحتاج إلى أن يعرفه المعلم على الإطلاق لتحقيق أغراضه .

يبد أن الحقيقة المباشرة التي يتعين على علم النفس — علم العقل — أن يدرسها ويفحصها هي أيضا أكثر الحقائق تمييزا .

هذه الحقيقة هي أنه يوجد في كل منا في حالات اليقظة (وغالبا في حالات النوم) نوع مستمر موصول الدوام من الوعي أو الشعور .

ف هناك تيار ، أو سلسلة متتابعة من الحالات أو الموجات أو المجالات (أو سماها ما شئت) من المعرفة والاحساس والرغبة والتأمل والتبصر والتدبر الخ الخ . تمر ثم تعود للمرور كرة أخرى ، وهي التي تشكل حياتنا الباطنية .

إن وجود هذا التيار هو الحقيقة الأولى والأعلى . وطبيعته ومصدره هما ركيزة علم النفس ولب المشكلة فيه .

وإذا نحن قسمنا حالات الوعي أو مجالاته ، وفصلنا طبائعها العديدة ، وحللنا محتوياتها الى عناصر ، أو اقتفينا أثر عادات تابعها ، فاننا نكون على المستوى الوصفي والمنسوب التحليلي . أما اذا تساءلنا عن مصدرها وعن السبب في كونها كذلك فاننا نصبح على المستوى التفسيري .

اذ ينبغي الاعتراف بصراحة أننا لا نعرف — في أى معنى أساسى — من أين تصدر تلك المجالات المتتابعة للوعى ، ولا السبب فى تكوينها الباطنى الدقيق على هذا النحو الذى يشكلها كما هى عليه .

إنها بالتأكيد تتبع أو تصاحب حالات مخنا . أما أشكالها الخاصة فتقررها طبعا خبراتنا الماضية وتربيتنا .

ولكن اذا سألنا كيف يكيفها المخ فليست لدينا أية اشارة ، أو أقل بصيص ، عن الجواب . واذا سألنا كيف تصوغ التربية العقل فاننا لا نستطيع أن نجيب الا بعبارة مجردة عامة حدسية تخمينية .

فاذا قلنا ان مردها الى كائن روحى يسمى روحنا التى تتفاعل مع حالاتنا العقلية بوساطة تلك التكوينات العجيبة من الطاقة الروحية فان كلماتنا ستكون مألوفة بدرجة كافية . هذا صحيح ، ولكنى أظن أنكم توافقون معى على أنها كلمات لا تنقع غلة ولا تشفى غليلا ، ولا تعطينا معانى أصيلة تفسر لنا الأمر وتشرحه وتلقى عليه الضوء .

الحقيقة أننا لا نعرف فعلا الأجوبة عن تلك الأسئلة على المستوى التفسيرى ، على الرغم من أنه قد يوجد فى بعض نواحي البحث بعض التأملات التى تفسح أمامنا فرصة الأمل . لذلك سأتحاشاها كليا لأنها لا تخدم غرضنا الحاضر ، وأتناول مجرد الوصف .

هذا هو ما كان يعتل فى ذهنى ويدور فى خلدى منذ برهة وجيزة عندما قلت انه لا يوجد عليم نفس جديد أو حديث جدير بهذه التسمية .

عندنا اذن مجالات للوعى . . هذه هى الحقيقة الأولى العامة .

والحقيقة الثانية العامة هى أن تلك المجالات المحددة هى دائما معقدة

التركيب .

فهي تشمل إحساسات جسمونا والأشياء المخيطة بنا ، وذكريات خبراتنا الماضية وما علق بأذهاننا من أفكار عن الأشياء البسيطة في البعد ، ومشاعر الارتضاء والتقبل والسخط والتذمر ، ومواضع حبنا ورجباتنا ونفورنا وكراهيتنا وظروفنا وحالاتنا الانفعالية ، مضافا إليها ما تقرره إرادتنا بالعزم والتصميم بكل ما فيها من صنوف وأشكال وأمزجة .

على أنه في معظم حالاتنا المحددة من الوعي فإن كل تلك الصنوف والأشكال والأمزجة المختلفة بتركيباتها وعناصرها توجد معا وفي الوقت نفسه إلى حد ما على الرغم من أن نسب تفاعلاتها فيما بينها وعلاقاتها بعضها ببعض الآخر متفاوت بين وضع وآخر ، وتنتقل مراكز الثقل فيها من منطقة لمنطقة ، وعنصر لعنصر ، وشكل لشكل ، أي إنها لا تثبت على حال وإنما تظل في حالة تنقل موصول .

فقد تبدو حالة منها كما لو كانت تتكون من أحاسيس ولا شيء سواها . وثمة حالة أخرى لا تتركب الا من الذكريات ولا شيء عداها ، الى آخره . ولكن اذا تمعنا في الأمر وجدنا أن الاحساس ليس إحساسا صرفا وإنما يلبسه دائما ويحيط به غلاف من الفكر والارادة ، وان الذكريات ليست ذكريات بحتة ؛ وانما تحوطها ظلال من الانفعال والاحساس وفي معظم مجالات وعينا يوجد لب من الاحساس واضح المعالم الى درجة كبيرة .

وأتم الآن مثلا — على الرغم من كونكم تفكرون وتشعرون — فان عيونكم تنقل اليكم احساسات وجهي وشكلي ، وآذانكم تنقل اليكم احساسات صوتي ، فالاحساسات هي المركز أو البؤرة ، والأفكار والمشاعر هي الهامش بالقياس الى مجال وعيكم الحاضر الفعلي .

وثمة جانب آخر للسألة — فقد تصبح بؤرة اتباهكم العقلي موضوعا

معينا من موضوعات التفكير ، أو صورة بعيدة من صور الخيال ، حتى في أثناء حديثي ، ففعلكم قد يخلق بعيدا عن المحاضرة ، وفي هذه الحالة تصبح احساسات وجهي وصوتى — على الرغم من أنها لا تختفى تماما من مجال وعيكم — في وضع هامشي لا يحتل من وعيكم الامساحة ضئيلة نحيلة .

وبتعبير آخر قد يكون هناك شعور متعلق بجسم الواحد منكم نفسه قد عبر منطقة الهامش الى منطقة البؤرة حتى في أثناء حديثي معكم .

ان هذين التعبيرين : هامش الشعور ، وبؤرة الشعور ، اللذين ندين بهما للعلامة ، لويد مورجان Loyd Morgan لا يحتاجان فيما أعتقد الى مزيد من الشرح والتفسير ، بيد أن الفرق المميز بينهما في غاية الأهمية .

وهذان هما أول اصطلاحين من الاصطلاحات الفنية التي سأطالِبكم بتذكرها .

وفي التقلبات المتتابة لمجالات الوعي فان سبيل ذوبان أو انسياب الواحد في الآخر غالبا ما يكون تدريجيا وتحدث كل أنواع وصنوف اعادة التنظيم الداخلى للتركيب والمحتويات .

فأحيانا تبقى بؤرة الشعور بتغيير طفيف في الوقت الذى يتغير فيه هامش الشعور بسرعة .

وأحيانا تتغير البؤرة ويبقى الهامش كما هو عليه ، وأحيانا يحدث تبادل بين البؤرة والهامش فيحتل كل منهما مكان الآخر .

وثمة حالات أخرى تحدث فيها تغيرات فجائية وعاجلة تتاب مجال الوعي برمته .

وقلما يوجد وصف جاد أو قاطع لهذه الظواهر ، وكل الذى نعرفه أنه

في — معظم الحالات — يكون لكل مجال نوع من الوحدة العملية بالقياس الى صاحبها .

ولانه من وجهة النظر العملية هذه يمكننا أن نصنف مجالا معيناً مع المجالات الأخرى الشبيهة به بأن نطلق عليه حالة افعال أو خبرة أو إحساس أو تفكير أو إرادة أو ما شابه ذلك .

وعلى الرغم من أن تفسيرنا لتيار الوعي الدافق يبدو غامضاً وضبابياً فإنه تفسير لا لبس فيه على الأقل ، وبأمن من الخطأ الايجابي ، وخال من أى خليط من التخمين أو الحدس أو الافتراض الذي لا يقوم عليه دليل .

ولقد حاولت احدى مدارس علم النفس ذات النفوذ — في استهدافها تعاشي اللبس والضبابية في اختصار نظريتها— أن تجعل الأمر يبدو أكثر تحديداً وعلمياً بأن تجعل التحليل أكثر حدة .

فمجالات الوعي المختلفة — طبقاً لهذه المدرسة — هي نتيجة عدد محدد لحالات عقلية أولية محددة تحديداً تاماً تترايط وتندمج وتندغم الى خليط كيميوي كالفينفساء .

وعند بعض المفكرين مثل سبنسر Spencer أو تين Taine تذيب هذه الحالات نفسها أخيراً وتشكل على صورة جزئيات أو ذرات نفسية أولية من « مادة العقل » تنبثق منها وتبنى من مادتها مباشرة كل الحالات العقلية المعروفة — على حد قولهم .

ولقد قدم لوك Locke هذه النظرية على نحو غامض نوعاً ما . فلقد اعتبر « أفكار » الاحساس والتأمل البسيطة — كما سماها — اللبنات التي يتركب منها البناء العقلي . وإذا قدر لي بعد ذلك أن أشير إلى هذه النظرية مرة أخرى فسأسميها نظرية « المثل » . ولكنني سأحاول أن أجذب بعيداً عنها .

وسواء أكانت نظرية مصيبة أم باطلة فهي على أية حال نظرية تخمينية فحسب ، أما فيما يتعلق بأهدافكم العملية كمعلمين فإن المفهوم الأقل ادعاء لتيار وعى الشعور بموجاته الكلية أو مجالاته المتغيرة باستمرار. سيكون كافيا وافيا بمطلبكم (*).

(*) في ضوء بعض التوقعات في الخارج المتعلقة « بعلم النفس الجديد » فمن المفيد قراءة اعتراف مؤسسها وندت Wunde وهو اعتراف مخلص سليم النية على غير المنتظر - بعد ثلاثين عاما من التجريب في المختبرات حيث يقول :

ان قوام الخدمة التي تستطيع الطريقة التجريبية اداءها - هو بالضرورة تدريبنا على سلامة الملاحظة الباطنية أو بالأحرى كما اعتقد جمل هذه الملاحظة ممكنة بالفعل في معناها الدقيق . حسنا - هل استطاعت ملاحظتنا الذاتية التجريبية - على هذا النحو - ان تثمر اية ثمرة ذات أهمية ؟ .

لا توجد اجابة عامة عن هذا السؤال لاننا في هذا الوضع الراهن المتسر لعلمنا - لا يوجد - حتى في داخل الخطوط التجريبية للبحث - قانون سيكولوجى عام قد تم تقبله وثبوته بصفة عامة شاملة .

وفي غمار هذا النشاز والتنافر في الآراء (وهو أمر مفهوم له ما يسوغه في وقت يتميز بالبلبله وفترة من التطور بتحسيس الناس فيها طريقهم وهم يتخبطون) فان الفرد المعنى بالبحث لا يستطيع الا شيئا واحدا وهو ان يعرف اى الآراء والبصائر التي يتعين عليه ان يشئ من أجلها الطرق المستحدثة ، فاذا ما سئلت عن قيمة الملاحظة ، التجريبية في علم النفس بالنسبة الى فيما مضى والآن فينبغى ان اقول انها اعطتني فكرة جديدة تماما عن طبيعة وارتباطات عملياتنا الباطنية .

لقد تعلمت مما تم انجازه عن طريق حاسة البصر ان ادرك حقيقة التركيب العقلى الخلاق ومن بحثى في علاقات الزمن . . . الخ . . . تكونت عندى بصيرة قادرة على النفاذ في ادراك الاتحاد الوثيق القائم بين كل الوظائف النفسية التي نفرق بينها ونعزلها عن بعضها عادة باصطناع تجريدات واسماء نخلعها عليها كالتخييل والشعور والارادة لذلك استطعت ان اتبين العروة الوثقى التي لا انفصام لها والتجانس والاتحام الداخلى في كل حالات الحياة العقلية . ان دراسة الضبط الذاتى لعمليات الترابط بينت لى في نهاية الامر

أن فكرة « الصور » العقلية المنزلة كانت إحدى تلك الأفكار العديدة من خداع الذات التي لا تكاد تجد لها تعبيراً في كلمة أو عبارة حتى تقذف بأوهام وخيالات لا وجود لها في علم الحقيقة .

لقد تعلمت أن انهم « الفكرة » أو « المثل » على اعتبار أنه سبيل مؤقت لا يقل ذوباناً أو فناءً عن أي عمل من أعمال الشعور أو الإرادة ثم تبينت أن القانون القديم الخاص بترابط الأفكار أصبح لا يتمسك لوهيه . بالإضافة إلى ذلك كله فإن الملاحظة التجريبية زودتنا بمعلومات أخرى عن المدى القياسي للوعي وعن سرعة بعض العمليات العقلية وعن القيمة العددية الدقيقة لبعض المادة المجمعة في علم النفس وما شابه ذلك . بيد أنني أرى أن كل تلك النتائج المتخصصة هي حصيلة فرعية جانبية ليست ذات بال نسبي ، وليست هي الشيء الهام على أي نحو - هذه الفقرة مأخوذة من كتاب :

Philosophische Studien, X. 121 - 124

وينبغي قراءة ذلك القسم كله الذي وردت فيه تلك الفقرة .

وكما أفسرها فإنها تصل إلى خطب ود تام للمفهوم الأكثر غموضاً لتبار التفكير ونبذ كامل للقضية برمتها التي ما زالت متبجعة في كتب علم النفس المقررة - بكل جد ومثابرة - حيث تقسم « العقل » ونخرطه إلى وحدات متباينة في التركيب والأداء والوظيفة ثم نحصيها عدا ونخلع عليها أسماء من المصطلحات الفنية .